مظاهر من الطبع المصرى

الإسراف فى طبـــــــقات العمال

الكسب المؤقت خطر شنيع

للأستاذ فايد العمروسى

أظن أن أجر " الترام " فى الدرجة الأولى شىء ليس بالعسير ، وأن فى مقدور الذين تعودوا أن يركبوا " الترام " أو غيره أن يدفعوا هـذا الأجر دون مضايقة لجيوبهم أو إرهاق لميزانيتهم ، ولقد كنت يوما من هؤلاء الذين لا ترهقهم هـذه الملاليم الزائدة فقصدت — كعادتى — إلى الدرجة الأولى فى الترام ، فإذا " بالصالون " ستة أشخاص ، وكلهم يلبس سترة العمل على اختلاف أنواعه ! ! ولقد حسبت أنها صدفة من الصدف التى تقع تحت العين فى مظاهر الحياة اليومية ، أو أنه نوع من التدلل ولو مرة فى الأسبوع أو الشهر لهذه الطوائف التى ما تعودت فى بلادنا إلا شظف العيش وقسوة الحياة ، ولكن هذه الصدفة تكررت وتكررت فى كل يوم ، وفى كل ترام ، وفى كل وسيلة من وسائل النقل من سيارة وعربة وقطار ! ! فأيقنت أن هذه الظاهرة التى حسبتها أول الأمر مصادفة وتدللا ما هى إلا عادة لهؤلاء الطوائف ولدتها ظروف الحرب بما فيها من عمل ومكسب دائم لا ينقطع ليلا ونهارا !

وليس من حقى أن أبغى أو أتعجب لمثل هذه المظاهر ، فطوائف العمال قوم أنا أحبهم وأجلهم وأعطف عليهم وأتمنى لهم ولأسرهم كل خير ونهوض ، ولقـد فطنت الحكومات المتعاقبة إلى ضرورة تحسين أحوالهم فزادت فى أجورهم ونظمت أوقات عملهم وسنت القوانين الصارمة التى تحميهم من استبداد أصحاب الشركات وأرباب الأموال ، ولست بصدد تعقد ما صنعته الحكومة لهم إلا بقدر هذه الإشارة الخفيفة ولكنى بصدد تحليل نفسى لحالة هذه الطوائف فى مظاهرهم الحاضرة تلك المظاهر التى طفرت بهم من السير على الأقدام ، إلى ركوب الترام فى الدرجة الأولى ، ثم إلى ركوب السيارات والعربات ، ثم إلى ارتداء الملابس الأفرنكية ، وكل هذا فى إسراف وبذخ وبذل لا يتفق مع الحكمة والتصرف لأمثالهم . . !

سمعت حديثا من بعضهم — وكنت فى سيارة عامة — خرجت منه على أن ثلاثة منهم سيتناولون طعام العشاء فى مطعم فخم بالقاهرة أخشى أن أسميه فيكذبنى القراء ! ! وفهمت منه أن هؤلاء الثلاثة أنفسهم سيقضون سهرتهم بعد العشاء فى سينما " الكورسال " !

وسمعت حديثا آخر من جماعة آخرين أن كل واحد "فصل بدلة" ثمنها اثنا عشر جنيها واشترى حذاء ثمنه جنيهان وأشياء أخرى يختلف ثمن الواحد منها من جنيه إلى نصف الجنيه، هذا ما سمعته أذناى من قوم لا أعرفهم ، ومن كلام ليس فيه سمة الكذب ولا طابعه ، وإنما فيه روح الاطمئنان وعدم المغالاة ، وأما ما رأته عيناى ممن أعرفهم ومن لا أعرفهم فى مظاهر هذا الإسراف فكثيرون ، وكثيرون جدا ! !

وليس هناك تعليل لمظاهر هذا الإسراف والتبذير فى طبقة العمال إلا أمران :

أولها ظروف هذه الحرب واتساع نطاقها مما أوجد العمل الكثير الذى يتطلب أيادى كثيرة بأثمان باهظة وأجور مرتفعة ، ومن هنا وجد العامل النقود تنساب عليه انسيابا يفوق نسبة الغلاء وارتفاع الأسعار ! !

ثانيهما شعور هذه الطبقة بالرخاء بعد العسر ، والوجدان بعد الفقد ، فهم إذ يسرفون اليوم فى النفقات فانما يعوضون ما ذاقوه من ضنك فى الماضى وحرمان من متع الحياة ، وهم بهذا التبذير ينتقمون — انتقاما غير مقصود — من الطبقات الاخرى الذين تتيسر لهم الحياة فى السلم والحرب ، والذين كانوا يشمخون بأنوفهم على غيرهم من الطبقات الفقيرة العاملة التى تكد وتضنى وتتعب تعبا شريفا مجديا .

ولن يستطيع مخلوق أن يعترض أو ينكر على هذه الطبقة أن تتمتع وتعيش كما يعيش ويتمتع كل مخلوق فى الدنيا ، فهم أناس تقوم على جهودهم أسس العمران فى الحياة ، وهم القوى النابضة التى بها تنهض الشعوب وتسير فى مضمار الحياة فى تطورها وتقدمها ، وإنما الذى ننكره على العامل أن ينسى الأمس ، ويغفل عن الغد ، ولا يعرف إلا يومه الذى هو فيه ، لو عرف العامل أن حياته قبل الحرب كانت قاسية عنيفة ، وأن ميادين العمل كانت كزة ضيقة ، وأن الأجور كانت زهيدة شحيحة ، وأن الأيادى العاملة كانت ضئيلة محدودة ، لو عرف كل ذلك لتريث قليلا فى الاندفاع فى النفقات .

لقد كان العامل قبل الحرب صرخة محزنة وأنينا أليما فى كيان الأمة ، كان يتقاضى الأجر الزهيد وهو مُعول فيعيش ، وكان يتعطل عن عمله أياما وأسابيع فيعيش ، وكان يفرحه زيادة القرش والقرشين فى اليوم فيعد هذا نعمة هبطت عليه من السماء فيتلقاها بالأكف الضارعة إلى الله بالحمد والشكران ، كان يقنع باللباس الممزق ، وبالعيش القفار ، ويمسيره ساعة وساعتين إلى محل عمله دون أن يتعب أو يسأم ، أو دون أن يبطر ويتدلل ، وهذا ما جعله فى نظر الناس والهيئات والحكومات رجلا جديرا بالعطف والرعاية ، وخليقا بالاصلاح والاعتراف بحقوقه المنقوصة حتى نالها أو نال معظمها حين فطنت الحكومة إلى

غبنه واعتنت بحل مشاكله فى هذه الظروف . عامل كهذا لو أحس ما كان فيه ثم قارن بين ماضيه وحاضره خليق به أن يقتصد فى النعمة فلا يبذرها وأن يمتع برزقه الجديد بحكمة وتفكير ! !.

* *
*

والعامل الآن ينحدر فى تيار الإسراف وهو مخدر الأعصاب بجيوبه المملوءة ، هو منبهر بكبرة الأوراق المرقة التى يحشو بها جيوبه كل يوم ، إنه يفكر فى يومه فقط ، لقد مات الأمس من عمره فليمت فى فكره أيضا ، أنه لا يفكر فى الغد ! الغد المعلوم فى حساب علماء الاجتماع والاقتصاد و إن كان مجهولا فى نظر الفلاسفة والشعراء ! .

لقد قرأنا ما كتبه المؤرخون فى وصف العالم بعد الحرب الكبرى الماضية من حيث البطالة والعمل ، فإذا مشاكل العمال هى العقد التى لا تحل ، والتى تعيي العلماء والعباقرة وتجهدهم وتستعصى عليهم ، لقد تعطلت ملايين الأيدى العاملة ، وتحولت المصانع الحربية أو بعضها إلى ما كانت عليه قبل فأصبحت لا تفى حاجاتها بمطالب الجيوش المتعطلة ، ومن هنا نشأ الجوع والمرض والفقر والتشرد والإجرام ، بل لقد نشأ الاختلاط وتفشت الأوباء الخلقية بسبب الهجرة وأمثالها مما لا زلنا نعانى متاعبه حتى اليوم ، وبالقياس على نتائج ما بعد الحرب الماضية نستطيع أن نوقن بأن ما بعد الحرب الحاضرة سيكون أقسى وأشد ، بل سيكون البلاء الأليم الذى يزعزع البشرية و يعم الحياة و يزلزل كيان العيش ، و إن المفكرين من العباقرة ليسهرون ليلهم و يقومون نهارهم فى الوصول إلى علاج الأزمات والمشاكل التى ستنشأ حتما بعد الحرب ، حتى انهم سموها " مشاكل السلم " .

ومن أهم هذه المشاكل وأعنفها مشاكل العمل والعمال ، ففى اللحظة التى توقع فيها معاهدة السلم العالمى ستقف فورا ملايين الآلات فى آلاف المصانع ، فكم من الملايين العاملة ستقف حتما بوقوف هذه الآلات ؟ ؟ إن مطالب الحرب غير مطالب السلم ، و إن نفقاتها وتضحياتها غير نفقات السلم وتضحياته ، و إن الذين يشتغلون اليوم ليلهم ونهارهم فيتقاضون أجورا عالية مضاعفة سوف لا يجدون فى المستقبل — إلا القليل منهم — عملا يشغلهم لا ليلا ولا نهارا ، وسوف لا يجدون أجورا بأزهد ما تكون الأجور .

فعلى طبقة العمال أن يقتصدوا من اليوم للغد ، وعليهم أن يفكروا فى شبح المستقبل الأسود على فى بشاعته ما يخيفهم منه ، وعليهم إذا خافوا أن يمسكوا أيديهم عن البسط المجنون ، وأن يتسلحوا بما فى أيديهم الآن من الثروة ليواجهوا بها هذا الشبح المخيف سنتين أو ثلاثا على الأقل حتى يبدأ العالم و يتمكن من السير فى نظام جديد .

إنى لأحزن وأتمامل حين أرى العامل يبعثر كل ما فى يده فى يومه حالما أن الغد القريب سيملؤه من جديد ، إنى لأتخيل هذا العامل المشغوف بالتبذير والاسراف فى هذه الظروف شخصا عاطلا كئيبا فى المستقبل فأحزن وأغتم ، لأنه لم ينتفع من اليوم الأبيض لليوم الأسود كما يقولون ، ولأنه بهره الحاضر ببريقه فعمى عن المستقبل وظلامه ! !

وإسراف العامل فى هـذه الظروف تصرف مطابق للطبيعة المصرية كل المطابقة ، فالطبع المصرى مسرف فى كل شىء ، مسرف فى اليقين والشك ، مسرف فى الفرح والحزن ، مسرف فى التشاؤم والتفاؤل ، مسرف فى الوصل والهجر ، مسرف فى كل المتناقضات ، وتبذله من هذا الى ذاك سريع كل السرعة ، ذلك لأنه يتقبل كل جديد بعواطفه وميوله المتعطشـة اليه دون إعمال الفكر والتفهم ، وتلك ناحية نقص لا شك فى. طبائعنا قد تمحوها الأزمات والتجارب حين يمر بنا الجيل بعد الجيل ، وحين نستفيد من الثقافات المختلفة والتجارب العملية ما يربى فينا روح التروى والتبصر والادراك والنظر الى العواقب .

* * *

وثمت ناحية أخرى خلقتهـا ظروف الحرب أو الكسب المؤقت ، وهى ناحية مؤذية إن لم نتداركها بالعلاج ، ذاك أن كثيرا من الأيدى العاملة الآن لم يكونوا عمالا ولا أرباب مهن قبل الحرب ، ولكن الكسب المؤقت أغراهم فانتهزوه وتركوا أعمالهم الأصيلة والتحقوا بميادين الأعمال فى هذه الأيام ، وهؤلاء يعدون بالآلاف أعرف منهم الموظف الذى استقال والتلميذ الذى ترك دراسته والتاجر الصغير الذى أغلق حانوته والزارع الأجير الذى ترك مزرعته والنجار والحداد والحائك وأمثالهم ، هؤلاء تركوا مهنهم الضيقة ليشـتغلوا عمالا فى الدوائر الحربية طمعا فى الكسب المؤقت ، وهذا حسـن لا غبار عليه لو أنهم اسـتفادوا فى هذه الظروف واقتصدوا بعضا من هذه الفائدة للمسـتقبل الذى ينتظرهم ، ولو أنهم صنعوا ذلك فاسـتغلوا الفرص وانتفعوا بها وتسلحوا بخبرها ليواجهوا بها ظروف ما بعد الحرب ما كان فى عملهم هذا إلا كل خير ونفع ، وما كان فى تفكيرهم هذا إلا كل إصابة وتوفيق .

غير أن المحزن كما قلت إنهم يسرفون ويمعنون فى الإسراف ، وأن ما يكسـبونه اليوم يذهب بذهاب النهار ، وأنهم يستقبلون كل يوم جديد كأنهم لم يكسبوا بالأمس شيئا ، وهم قوم يؤمنون بالتوا كل ويعتقدون أن لكل يوم رزقا جديدا ينزل عليهم من السماء فى موائد كالتى نزلت على الأنبياء ، وهم متشبعون بالمثل القائل "اصرف ما فى الجيب ... الخ" والرزق على الله ! ! ولا تفكر فى "بكره" ولست أدرى من أين تشبعوا بهذه الفلسفة وهم غير فلاسفة ؟ ولعلهم فهموا خطأ قول المعرى إن كان قد سمعوا به :

ما مضى فات والمؤمل غيب ولك الساعة التى أنت فيهـا

ومع ايماننا بأن لكل يوم رزقا جديدا فإنى أحب أن يعلم المتواكلون والمسرفون ، أن الرزق دائما نتيجة للعمل والجهود، وان الشريعة الغراء لتغضب كل الغضب على المتواكلين الذين يشوهون مبادئها العالية بأفهامهم السقيمة ، الرزق لا يهبط على الناس كالجراد يهبط على الحقول ،ولكنه يهبط على الأيدى العاملة ، وينزل على الأفكار التى تميل الى السعى والطلب وتحترم النعمة فلا تبعثرها ذات اليمين وذات الشمال ؛ وفى الحديث القدسى "ياعبدى حرك يدك أنزل عليك الرزق" .

وفى الحديث النبوى "اعمل لدنياك كأنك تعيش أبدا واعمل لآخرتك كأنك تموت غدا" وفى القرآن الكريم : "ولا تبسطها كل البسط فتقعد ملوما محسورا" وأحب أن يعرف المسرفون من طبقات العمال فى هذه الأيام أنه ليس بمستحيل أن يموت الانسان جوعا اذا هو لم يعمل؛ واذا هو لم يقتصد من رخائه لضيقه، ولقد حدثنا التاريخ عن ضحايا الجوع بعد الحرب الكبرى وعما فعله ضيق العمل بالأيدى العاملة .

وأحب أن يفهموا أن "الرزق على الله" هذه جملة لها معنى أسمى وأبلغ مما يفهمون ، وأن الله جل شأنه لا يصطفى من عباده المتواكل الجاهل الذى لا يفكر فى مستقبله ومستقبل أولاده ، والذى لا يتبصر فى الإنفاق بروية وفهم وقناعه !

يعتقد المسرفون من طبقات العمال وأمثالهم ان هذه الأيام فرص للتمتع والتنعم ، وأنها فرص للظهور فى عالم المظاهر ، فرص لاقتناص ما كان ممنوعا عنهم فى حياتهم الأولى ؛ وكأنهم قد آمنوا بمن قال :

تمتع بها ما ساعفتك جدودها فما كل حين صفوها لك شامل

والواقع أن هذه الأيام فرص لهم ولأمثالهم،ولكنها ليست فرصا للتبذير والبعثرة بحساب وبغير حساب ، وإنما هى فرص للانتفاع والاقتصاد للأيام المقبلة كما قلت ؛ وهى فرص حقا ينتفع بها العمال فى الشعوب التى تعرف كيف تحين الفرص الذهبية ، وكيف تستفيد من تقلب الأحوال والأوضاع الدولية فى كل العصور .

وأظن أنه ليس من الخير أن تترك هذه الطوائف وأمثالها فى انحدار الاسراف والتبذير وأن من الحكمة أن يقوم المفكرون بتبصيرهم الى الطريق القويم وأن يرسموا لهم أوضح المناهج التى يسلكونها فى هذه الأيام لتقيهم من شر المستقبل القريب .

وأرى من الوسائل التى قد تبصر هذه الطوائف بالحقائق وتحد من اسرافهم ما يأتى :

أولا — الكتاب الذين يعالجون المشاكل الاجتماعية فى هذه المجلة عليهم معظم المسئولية فى توجيه هذه الفئات وتنوير أذهانهم ولفتهم الى ما يجب أن يتبعوه فى هذه الظروف و إن

جنون الاسراف فيهم لمن أخطر المشاكل الاجتماعية ، التى يجب أن تعالج من الآن لأنها لو تركت لاستفحلت يوما بعد يوم ، ولتفاقم ضررها الذى قد يستعصى على المفكرين فيما بعد ، وان الصحف الأخرى بما فيها من هيئات تحرير واشراف على الشؤون العامة لمسئولة أيضا عن معالجة هذه الحالة التى برزت بروزا شنيعا فى هذه الأيام .

ثانيا — الاذاعة عامل مهم أوهو أهم الوسائل فى إيصال الإرشاد الى هذه الطوائف ؛ والمذيعون الذين يلقون علينا كل يوم محاضرات عن العالم فى اسبوع مثلا هم أولى الناس بأن يلتفتوا الى هـــذه الناحية وأن يتناولوها فى موضوعاتهم ، وأظن أن قسم الاذاعة بوزارة الشؤون الاجتماعية ليتحمل النصيب الأكبر من هذه المسئولية ، فعليه أن ينظم اذاعتين كل أسبوع على الأقل توجه الى طبقات العمال ومن فى مستواهم ممن يكسبون بلا حساب ويسرفون بلا حساب على أن تكون الاذاعة فى مستواهم الفكرى ؛ وأن تحتوى على أرقام واحصاء ومقارنة ومثل من الحرب الماضية لتكون عبرة لنا فى هذه الحرب .

ويجب أن يحتم على المصانع أن يكون فى كل منها جهاز استقبال لهذه الاذاعة ، وأن تكون الاذاعة فى وقت العمل نهارا أو ليلا حتى يسمع كل عامل ما يلقى عليه من الارشادات ، وفى الواقع إن العامل فى هذه الأيام لفى حاجة الى قيادة تنظم حياته المادية حتى نأمن عليه الغدور فى المستقبل الذى ينتظره .

* * *

ثالثا — خطباء المساجد والوعاظ مسئولون أيضا فى هـذا الصدد ، وما أجمل لوقطن خطيب الجمع إلى هـذه الناحية فيعالجها علاجا دينيا واضحا ، ثم يوجه خطبته إلى المصلين فى إرشاد ونصح ، وإن تأثير خطب المساجد فى نفوس السامعين ، إذا كان الارشاد عمليا لابلغ أثرا وأعمق نفعا إذا كان له مساس بحياتهم وفيه حرص على مصالحهم الدنيوية ، وواجب الوعاظ الدينين الذين يعظون الناس فى المساجد والمحافل العامة جزء من هذه الوسائل التى يجب أن نعنى بها ونبرزها نشطة حارة فى هذه الظروف الدقيقة الخطره .

وإذا حسن للمحاضرين أن ينشئوا بحوثهم فى الأدب والفن والتربية وأمثال هذه الشئون فإنما يجمل بهم ويحسن كل الإحسان أن ينشئوها أيضا فى هذه المشكلة وأن ينظم فى كل أسبوع محاضرتان على الأقل فى المنتديات ، وأن يدعى اليها العمال للاستماع والانتفاع .

رابعا — عرض الأفلام فى دور الخيالة بحيث تكون خاصة بحياة العمال فى الماضى والحاضر ، وبحيث تحتوى صورا ناطقة لحياتهم بعد الحرب الماضية ، وأن يكون مغزاها واضحا فى أذهان المتفرجين ، وأن تشمل قصصا واقعا أو موضوعا لنتيجة الإسراف والتبذير

حتى يكون ذلك العرض شبحا مخيفا فى نفوس المسرفين ، وعل هذا التحذير مانع من اليد أن تبعثر ، وموقظ للعقول التى تترنح بنشوة الكسب غير المحدود غافلة عن مستقبلها المنتظر ناسية ماضيها القريب .

خامسا — نظام الادخار فى الشركات ، وذلك بقوانين تسنها الحكومة وتفرضها على أصحاب العمل والعمال باقتطاع نسبة خاصة من الأجور تحفظ لكل عامل باسمه وأن يكون هناك من القوانين مايضمن انتفاع العامل بها بعد الادخار ،وما يطمئنه على ردها اليه كاملة غير منقوصة ، وما أظن إلا أن العمال سيغتبطون بنظام كهذا ما دامت فيه مصلحتهم ، وفيه شىء اسمه " نقود " ستحفظ لهم وترد اليهم ولو طال عليها الزمان .

ويتساوى فى هذا وذاك من الوسائل نظام التأمين الجبرى أسوة بالعمال فى البلاد الأوربية ونظام فرض ضرائب تسمى ضرائب الادخار تكون بنسبة خاصة فى الأجور العالية ، وهذه تتولاها الحكومة كنظام مالى يشبه نظام " المعاشات " للموظفين ، وما أظن أن عاملا يمانع فى عمل كهذا يحفظ له ولأسرته حياته ، ويقيه شر تطورات الزمن ، ويطمئنه على مستقبله حين تتعطل يداه أو تضمحل قواه .

* * *

ونقابات العمال تستطيع بمساعداتها إبراز هذه الوسائل والنهوض بها لمصلحة العمال وتستطيع فى الوقت نفسه بما لها من نفوذ أن تهيئ العمال لقبول هذه المقترحات ، والنقابات التى كانت فى الماضى تطالب برفع الأجور للعمال عليها الآن وقد ارتفعت الأجور بما قررته الحكومة وبما أحدثته ظروف الحرب ، عليها الا تغفل عن حياة العامل المادية المبعثرة الآن دون حساب ، وهى فى سعيها أن تقترح لهم من النظم ما تشاء وأن تطالب موافقة الحكومة عليها بحيث تكون هذه النظم فى دائرة معقولة تضمن لهم ادخار شىء مما يكسبونه الآن وتقف من تيار هذا التبذير الجارف والاسراف الممقوت .

هذه كلمة لابد منها خلقها الإسراف فى الطبع المصرى الذى نشاهده الآن واضحا جليا فى حياة العمال المادية ، بل فى حياة الفقراء عامة ممن يكسبون الكسب المؤقت فى هذه الظروف ، ولعل مافيها من وسائل العلاج يلفت نظر المسئولين إلى التفكير فى هذه المشكلة ، ولعلهم أن يعملوا بها إن وجدوها صالحة ، وإلا فلا أقل من أن تكون نواة يقوم عليها الإرشاد والإصلاح .

فايد العمروسى